دَورُ الدِّينِ في بناءِ الثِّقة
بين المجتَمَعاتِ الإنسانيَّةدَورُ الدِّينِ في بناءِ الثِّقة بين المجتَمَعاتِ الإنسانيَّة

أحمد بن عبد العزيز بن قاسم الحدَّاد(*)

الحمدُ للَّه الَّذي ارتضى لنا الإسلامَ دينًا، وجعلَ الدِّينَ حِصنًا حصينًا؛ فمَن دخلَه فازَ فوزًا مبينًا، وعاشَ في الدُّنيا سعيدًا، وفي الآخرةِ حميدًا، والصَّلاةُ والسَّلامُ على أنبيائِه ورُسلِه الَّذين شَرَعَ لهم الدِّينَ ليُبلِّغُوه الآخَرينَ؛ فيكونوا به مؤمنين، وبه فائزين، وللرِّضا حائزين، وبعدُ:

فإنَّ المجتمعاتِ الإنسانيَّةَ مُكلَّفةٌ بالشَّرائعِ الرَّبَّانيَّةِ، ولقد شاءَت حكمةُ اللَّه وإرادتُه أن يكونَ الإنسانُ مُستخلَفًا في الأرضِ؛ ليَعرِفَه بالإيمانِ، ويَعبُدَه بما شَرَعَ ممَّا يُطيقُه الإنسانُ، وذلك هو الدِّينُ الَّذي أرادَه اللَّهُ تعالى مِن الإنسانِ؛ ليعيشَ به خليفةً في الأرضِ، ويتعايشَ به مع غيرِه.

ولمَّا كانَ كثيرٌ من النَّاسِ اليومَ قد تَخلَّوا عن الدِّينِ القيِّمِ، وشَرَعُوا لأنفسِهم ما لم يأذنْ به اللهُ؛ ممَّا يَدينون به بما تُمليه عليهم أهواؤُهم، وما وَرِثُوه مِن مُجتمعاتِهم؛ فكانَ لا بدَّ لعقلاءِ البشرِ الَّذين يتقاسمُون همومَ الأممِ أن يَعمَلُوا جاهدين لإرجاعِ الفطرةِ الإنسانيَّةِ إلى أصلِ وَضعِها، ولا سبيلَ لذلك إلَّا بربطِ الإنسانِ بالدِّينِ القيِّمِ الَّذي فَطَرَ اللَّهُ تعالى الخَلقَ عليه، كما قالَ الخالقُ جلَّ شأنُه: [فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون] [الروم: ٣٠]، وكما وَرَدَ في الحديثِ عن سيِّدِنا رسولِ اللَّه صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: «إنِّي خلقتُ عبادي حُنَفاءَ كلَّهم، وإنَّهم أَتَتهُمُ الشَّياطينُ فاجتالَتهم عن دِينِهم ,وحرَّمَت عليهم ما أَحلَلتُ لهم , وأَمَرَتهُم أن يُشركوا بي ما لم أُنزِّلْ به سلطانًا، وإنَّ اللهَ نظرَ إلى أهلِ الأرضِ فمَقَتَهم؛ عَرَبِهم وعَجَمِهم ، إلَّا بَقايا من أهلِ الكتابِ...»(*).

وبيانًا لذلك أضعُ بين يَدي القارئِ الكريمِ هذا المُلخَّصَ لبيانِ أثرِ الدِّينِ على استقامةِ الحياةِ البشريَّةِ عندَ التَّمسُّكِ به، وفسادِها عندَ التَّخلِّي عنه.

تعريفُ الدِّينِ:

الدِّينُ في الاصطلاحِ هو: «وضعٌ إلهيٌّ سائقٌ لِذَوي العقولِ باختيارِهم إلى الصَّلاحِ في الحالِ، والفلاحِ في المآلِ»؛ ويَعني: الإيمانَ بخالقِ الكونِ والإنسانِ، وبالتَّعاليمِ والوظائفِ العمليَّةِ الملائمةِ لهذا الإيمانِ، وذلك في مقابلِ أولئك الَّذين لا يؤمنون بالخالقِ إطلاقًا، بل يؤمنون بالصُّدفةِ والاتِّفاقِ في خلقِ الظَّواهرِ الكونيَّةِ، أو أنَّها مُسبَّبةٌ للأسبابِ المادِّيَّةِ والطَّبيعيَّةِ.

القِيمُ الدِّينيَّةُ المُشترَكةُ:

تشتركُ الأديانُ التَّوحيديَّةُ ذاتُ الصِّبغةِ الإلهيَّةِ الرَّبَّانيَّةِ بثلاثةِ أصولٍ كلِّيَّةٍ هي:

١- الإيمانُ باللَّهِ الواحدِ.

٢- الإيمانُ بالحياةِ الأبديَّةِ في عالَمِ الآخرةِ، ونَيلِ الجزاءِ على العملِ؛ إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

٣- الإيمانُ ببِعثةِ الأنبياءِ والرُّسُلِ المبعوثين من اللَّه تعالى؛ لهدايةِ البشريَّةِ، وإسعادِهم في الدُّنيا والآخِرةِ.

لقدِ اختارَ اللَّهُ سيِّدَنا محمَّدًا ليكونَ خاتَمَ الأنبياءِ والرُّسُلِ، وبَعَثَه على حينِ فترةٍ مِن الرُّسُلِ؛ إذ كانَ وحيُ السَّماءِ قدِ انقطعَ لأكثرَ مِن خمسةِ قرونٍ، حتَّى دخلتِ الوثنيَّةُ وعبوديَّةُ غيرِ اللَّه تعالى، وما كانَ للبشريَّةِ أن تستمرَّ في انحرافِها، بل لا بدَّ أن تعودَ إلى رُشدِها، فاختارَ اللَّهُ تعالى لها رسولًا من أنفسِهم يُجدِّدُ معالمَ الحنيفيَّةِ، ويُعيدُ البشريَّةَ إلى التَّوحيدِ.

القواسمُ المُشترَكةُ في المجتمعاتِ الدِّينيةِ:

بينَ الرِّسالاتِ السَّماويَّةِ قاسِمٌ مُشترَكٌ لا تختلفُ فيه؛ يتمثَّلُ في ثلاثةِ أمورٍ هي:

١- الإيمانُ به سبحانَه ربًّا واحدًا لا شريكَ له.

٢- العباداتُ الَّتي يُحقِّقون بها مبدأَ العبوديَّةِ للَّه تعالى.

٣- القِيَمُ الخُلُقيَّةُ.

١- الإيمانُ به سبحانَه ربًّا واحدًا لا شريكَ له:

لقد كانَ توحيدُ اللَّه تعالى في كلِّ الدِّياناتِ نقيًّا، وعبادتُه خالصةً؛ كما قالَ سبحانَه على لسانِ آخِرِ أنبياءِ بني إسرائيلَ عيسى عليهِ السَّلامُ: [ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد] [المائدة: ١١٧].

وقد جاء في سفر التثنية (٦: ٤): «اِسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ: الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ لا يكونُ لكَ إلهٌ غيرُ إلهِ إبراهيمَ؛ ربُّ السَّماءِ والأرضِ».

غيرَ أنَّ تَقادُمَ العهدِ بالدِّياناتِ هذه والَّتي اؤتُمنَ علَيها البشرُ أدَّى إلى عدمِ حفظِ أصولِها، فحصلَ التَّبديلُ والتَّغيُّرُ في مفهومِ التَّوحيدِ والعبادةِ؛ فاحتاجتِ البشريَّةُ لتعودَ للملَّةِ الحنيفيَّةِ، ملَّةِ إبراهيمَ، وهي شريعةُ الإسلامِ الصَّافيةُ الَّتي جاءَ بها جميعُ الأنبياءِ والرُّسُلِ، والَّتي لم يرتضِ اللهُ تعالى لنفسِه دِينًا سواه، كما قالَ سبحانه: [إن الدين عند الله الإسلام] [آل عمران: ١٩].

٢- العباداتُ الَّتي يُحقِّقون بها مبدأَ العبوديَّةِ للَّه تَعالى:

وتتمثَّلُ في جواهرِ العباداتِ في جميعِ شرائعِه معَ النَّبيِّينَ؛ مِثلُ الصَّلاةِ والزَّكاةِ والصِّيامِ والحجِّ؛ فما من نبيٍّ إلَّا جاءَ بها كما حدَّثَنا القرآنُ الكريمُ عنها.

٣- القِيَمُ الخُلُقيَّةُ:

وتتمثَّلُ في الصِّدقِ والعدلِ، والصَّبرِ والحِلمِ، والعفوِ والوفاءِ والكرمِ، والرَّحمةِ والإحسانِ؛ فهي ممَّا لا خلافَ فيها بينَ الدِّياناتِ السَّماويَّةِ، بل حتَّى الوضعيَّةِ؛ لأنَّها تُحقِّقُ المصالحَ المُشتركةَ للبشرِ في جميعِ أحوالِهم وعصورِهم وأمصارِهم، ولذلك كانَت بِعثةُ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لإتمامِ المكارمِ الأخلاقيَّةِ، كما قالَ صلى الله عليه وسلم: «إنَّما بُعثتُ لأُتمِّمَ صَالِحَ الأخلاقِ»(*)، والمعنى أنَّ كلَّ الأنبياءِ والرُّسُلِ جاءُوا بهذه المهمَّةِ، فكلُّ نبيٍّ عُنِيَ بإصلاحِ ما في قومِه من انحرافٍ خُلُقيٍّ، ثمَّ احترامِ الكرامةِ الإنسانيَّةِ، والحفاظِ على الإنسانِ، وما يَصلُحُ به حالُه في هذه الحياةِ؛ ممَّا خلقَه اللهُ تعالى له، وهو ما في الأرضِ جميعًا؛ بألَّا يُفسِدَ في الأرضِ، ثمَّ الطُّهرِ والعفافِ ,والعدلِ والوفاءِ , والصِّدقِ والكرمِ، والإنصافِ والحِلمِ، والإيثارِ والمحبَّةِ والرَّحمةِ.

وكلُّ ذلك أمورٌ تتَّفقُ مع الفطرةِ الإنسانيَّةِ ومنهجِ الرِّسالةِ الإسلاميَّةِ؛ فليسَ هناك دِينٌ سماويٌّ إلَّا وقد أتى بهذه القِيَمِ، وهي ترجعُ إلى الكلِّيَّاتِ الخمسِ الَّتي حافظَت عليها جميعُ الشَّرائعِ السَّماويَّةِ، المتمثِّلةِ في الحفاظِ على الدِّينِ والنَّفسِ والعقلِ والعِرضِ والمالِ.

عَلاقةُ القِيَمِ ببِناءِ المجتمعاتِ:

إذا عُلِمَ أنَّ القِيَمَ الخُلُقيَّةَ هي هدفٌ إنسانيٌّ قبلَ أن تكونَ هدفًا إسلاميًّا؛ فإنَّ مِن الواجبِ أن تكونَ أساسًا لبناءِ المجتمعاتِ الإنسانيَّةِ؛ لأنَّ الكلَّ يَنشُدُ الحضارةَ والرَّخاءَ والأمنَ والطُّمأنينةَ والسَّعادةَ الخاصَّةَ والعامَّةَ... ولا تقومُ هذه الأشياءُ إلَّا على أُسسِ القيمِ الأخلاقيَّةِ الَّتي هي مُبتغى كلِّ البشرِ، كما يقولُ شوقي رحمه اللَّهُ:

وإنَّما الأممُ الأخلاقُ ما بَقِيَت
فإن هُمُ ذهبَت أخلاقُهم ذهبُوا

ويقولُ أيضًا:

وإذا أُصيبَ القومُ في أخلاقِهم
فَأَقِم عليهم مَأتمًا وَعَوِيلَا

فإذا خلتِ المجتمعاتُ عن القِيَمِ فَشَت فيها الشُّرورُ، وكثُرَ الفجورُ، فلا يأمنُ المرءُ على نفسِه، ولا على مالِه، ولا على عِرضِه، وكثُرَ الكذبُ والغشُّ،

والخيانةُ و الفجورُ، وطغَتِ الأَثَرةُ، وعمَّ الشُّحُّ، وامتنعتِ المواساةُ ... وهذه جميعُها ممَّا تُنفِّرُ منها الدِّياناتُ السَّماويَّةُ والقِيَمُ المجتمعيَّةُ، وتُحرِّمُها القوانينُ المُنظِّمةُ والمُعاهداتُ الدَّوليَّةُ.

وبهذا يُعلَمُ ما بينَ الدِّياناتِ السَّماويَّةِ مِن قواسمَ مُشترَكةٍ، تُحقِّقُ التَّعايُشَ والتَّعاونَ بينَ البَشرِ، وهو هدفٌ إسلاميٌّ عظيمٌ، كما قال اللَّه تعالى: [يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير] [الحجرات: ١٣].

والأملُ معقودٌ على حُكَمَاء المسلمين وغيرِهم؛ أن يَسعَوا جاهدينَ لتحقيقِ هذه المُثُلِ العُليا الَّتي يَتحقَّقُ بها الأملُ المنشودُ في السَّعادةِ والأمنِ والطُّمأنينةِ.

واللَّهُ وليُّ التَّوفيقِ، وهو حَسْبُنا ونعمَ الوكيلُ، وصلَّى اللَّهُ وسلَّم وبارك على سيِّدِنا محمَّدٍ، وعلى آلِه وصَحبِه أجمعينَ.

* * *